المشجب

قصة بقلم يحيى خلف

١٥ حزيران ... الساعة ١٨ :

يحدق بخطوط كفه ، وعقد أصابعه .. يرفع رأسه ويحدق بالمرآة ، يلتفت حوله ويحدق بلاعبي النرد والورق ، يغمض عينيه ويجتر العذاب والصهد .

يعود ويرفع رأسه الى المرآة ، لا يستطيع أن يمنع نفسه من النظر الى هذا الوجه بغرابة ، كأنما يرى نفسه لاول مرة .

ويجول بخاطره أن يمد يده الى المنفضة اللاى بالاعقاب ، ويرفعها عاليا ويقذف بها هذا الوجه المعذب .

نشر رجل أمامه جريدة عناوينها حمراء مذبوحة ، قال لنفسه : ان المتزمل في ثيابي غريب الوجه واليد واللسان ، فماذا ستقول العينان عندما تطبق عليّ بعد هذه الاعوام الطويلة ؟!

دق الرجل ذو الشارب الكثيف قبضته فوق الجريدة ، وقال بصوت سميك :

ـ لقد خسرنا المعركة بسبب التواطؤ الامبريالي .

حل عقدة عنقه ، وحلم لحظات بظل سحابة ، ونادى في أعماقه : نادية .. نادية .. لكن الصورة في ذهنه أشاحت وعبست ، وازداد احساسه بالرغبة في قذف الوجه المعذب بمنفضة السجائر .

أحضر نادل المقهى كوب شاي بلون القطران ، فشرب نصفه دفعة واحدة وكأنه يشرب زيت الخروع .. ارتسمت على جبينه تعابير مشوشة ، ومن خلال عينين نصف مغمضتين بدت الوجوه حوله كأنما هي مرايا تنعكس عليها صورته الممزقة .

ـ لقد خسرنا المعركة لان ....

أجاب رجل يجلس أمام الشاب ذي الشارب الكثيف ، وهبت نسمة من الهواء ، تطايرت ورقات الجريدة .. واحتدم النقاش حوله عن أسباب الهزيمة ، وحمل الهواء الجريدة عاليا وألقى بها في حركة ترنحية ، فداسها ماسح أحذية .

وقف .. امتدت يده الى جيبه ، وتحسس القروش القليلة في جيبه ، ثم ألقى ببعضها على الطاولة ، وخرج ..

استقبله الشارع بالهدير ، فازداد احساسه بالغربة ، وبصعوبة كان يشق طريقه بين الناس .. وكانت في أعماقه دوامة من الحوار .. وعبرت ذهنه ذكريات الجامعة والاختبارات الاسقاطية لدكتورة علم النفس ، فأمضه الحنين لظل سحابة ..

العينان العسليتان والوجه الملائكي .. كيف سأقوى على أن أرفع عيني الى عينيك عندما يتفجر الصمت ؟

* * *

الزحام امام مبنى الهلال .. وقف في الطابور الطويل ليحصل على رسالة يبعثها لأمه في أريحا بواسطة الصليب الاحمر .. خيل اليه انه يتكرر عشرات المرات ويكوّن وحده هذا الطابور الطويل .

وتصورهم وأقدامهم تسوخ في رمال أريحا ويخوضون في الصهد تحت قذائف النابالم ، فتطاحن الحقد في داخله .

قال شيخ يقف أمامه :

ـ هذا اليوم كيوم الحشر .

فاجاب شاب يقف أمام الشيخ :

ـ لو اننا انتصرنا ، لكنا الان في الجنة .

عاد الشيخ يقول :

ـ تتحدث عن الجنة ؟.. لقد خسرنا المعركة لاننا ابتعدنا عن الدين .

استمر الحوار بينهما وطال .. وحاول أن يبعد ذهنه وتركيزه عن المناقشة ، وأن يستجمع في ذهنه صورة ناديه .. ووضحت الصورة ثم تلاشت فجأة كومضة ضوء .

وعندما أمسك بالقلم ليكتب لأمه ، كادت جرفه رغبة ملحة في البكاء .

ولم يدر لم أحس بأنه طفل ، وانه بين يدي أمه في الحمام ، تعلو جسده الرغوة ، ويدخل الصابون في عينيه .. ويبكي .. ويبكي.. ويدها تدعك جلده ...

طوى الرسالة دون أن يكتب حرفا ، ودسها في جيبه ، وشق طريقه بين الجموع عائدا ..

منذ أن فتحت عيني على الحياة وأنا ضعيف القلب .. كانوا يطلقون علي لقب الجبان الكبير ، وحينما كنا أطفالا كنت أخاف أن أعود الى البيت عندما أتأخر في بيت خالي .. كانوا يضحكون علي ، ويبعثون معي نادية التي تصغرني بعامين .

لم أكن رجلا ..

لم أشترك مرة في مظاهرة .. لم أشترك في أي نشاط سياسي. كنت أخاف من كلمة مخفر ، وكلمة سجن ، وكلمة معتقل .

الوطن كان بالنسبة لي كلمة في قطعة محفوظات .. كان معنى تجريديا لا أستطيع أن أحسه .. يا أمي .. ماذا أفعل ؟ الان أحس بأنني يجب أن أخسر حياتي من أجل أن ننتصر .

* * *

يسير في الشارع مثل شخص أفاق من نومه بعد أن حلم انه جلد مئة جلدة . الناس .. الزحام .. المزيد من النازحين .. النقود تتسرب من بين يديك .. وغدا أو بعد غد ستنام على الرصيف ، وتتغطى بأوراق الجرائد .

كوّر قبضته ، وضرب بها الهواء .. والان .. أيتها الرقيقة هل أقوى على أن أطرق بابك ؟

ألقى بنفسه في أول سيارة أجرة .. كان يشعر بالاختناق .. بأنه في كهف طوله سبعون ذراعا .. وكان يحلم بحمامة وخيوط عنكبوت .

وسمع من المقعد الخلفي ، صوت رفيع لشاب :

ـ اننا لم نخسر المعركة الا لاننا نتمسك بالتقاليد البالية ..

فأجابه صوت أجش :

ـ في الواقع أن السبب الحقيقي ما هو الا أولئك الشباب الذين يحلقون شواربهم ويطلقون شعورهم كالخنافس ، ويلبسون البنطلونات الضيقة ..

بحث في جيبه عبثا عن سيجارة ، ثم قال لنفسه : كل واحد فينا يبحث عن مشجب يعلق عليه أخطاء الهزيمة .. كل واحد فينا يحاول أن يبعد عن نفسه التهمة ويلصقها بالاخرين ..

وعندما لفظته السيارة ، كان مذاق العذاب اكثر مرارة .

ضغط الجرس .. بعد صمت رهيب انفتح الباب ، فرفرف قلبه بعنف فيما كانت الخادمة تحدق فيه بغرابة .

ـ الاستاذ بدر موجود ؟

فاسته الخادمة بعينيها وأجابت :

ـ لا .. ليس هنا .

فكر في أن يشكرها ويعود ، لكن صوتها استوقفه :

ـ هل تحب أن تترك له بطاقة ؟

ابتسم رغما عنه ، وقال :

ـ قولي له انني قريب الست نادية ..

تغير جمود وجهها فجأة ، وبدت لها ملامح أكثر الفة .. وخرجت الكلمات من فمها تتلعثم كأنما تتصادم :

ـ أهلا وسهلا .. دقيقة من فضلك .. سأخبر الست .

وبعد لحظات أقبلت نادية ، أقبلت كالمستحيل .. كشخصية لامعة تشاهد لاول مرة ..

حدقت به جيدا ، وبدا انها لم تعرفه لاول وهلة . ثم رفعت حاجبيها في دهشة ، فمد لها يده .. وتصافحا في لحظة ذهول ، وتنبها الى وجود الخادمة ، فاختنقت كلمات كانت على شفتيه . قادته الى غرفة الاستقبال .. ثم غابت قليلا ، وعادت مع طفلة شقراء بضفيرتين بدت نسخة طبق الاصل منها ، فقال لنفسه انها تريد أن تشعرني بأنها أصبحت أما وان الماضي قد طواه النسيان .

ابتسمت بتحفظ وقالت :

ـ ابنتي انتصار !

التقت عيناه بعيني الصغيرة الصافيتين .. وقال :

ـ اسم جميل كصاحبته .

ورفع رأسه فشاهد صورة رجل في اطار معلقة على الحائط ، فأشار نحوها وقال :

ـ أظن انه زوجك بدر ...

هزت رأسها بالايجاب .. سألها :

ـ ألم يعد من العمل بعد ؟

مرت سحابة سريعة من الانفعال عبر وجهها وأجابت بسرعة :

ـ انه هنا في المنزل .

حدق فيها بغرابة ، وكان سيسألها فيما اذا كان وجوده غير مرغوب فيه ، الا انها سبقته قائلة :

ـ انه لا يقابل أحدا منذ حدوث النكبة .

تكاثفت غيوم الكآبة في الاعماق ، وأحس بالصقيع والغربة .. طال بينهما الصمت .. ثم جاء صوتها :

ـ هل أنهيت دراستك في الجامعة ؟

قال وهو لا يبعد عينيه عن عينيها كأنما يخشى أن لا تصدقه :

ـ لقد قطعت دراستي وجئت لاشارك في الدفاع عن بلدي .

رفعت حاجبيها في دهشة كما توقع ، وفتحت فمها لتقول شيئا ، لكنها لم تلفظه .. وحدس انها كانت ستسأله : منذ متى أصبحت شجاعا ؟

وعبرت خياله صورة تجمدت اللحظات عندها ذات يوم ، فعاشت في ذاكرته عدة سنوات .. نادية تقف بالباب .. وأمه ترفع يدها عاليا .. وهو يتلقى منها صفعة على خده .

كان أيامها قد نجح بالمترك حديثا ، وقد صفعته أمه لانه تجرأ وطلب منها أن تخطب له نادية ـ ابنة خاله ـ ..

كانت تلك اخر صورة يحتفظ بها القلب والذاكرة .

وبعدها ، ذهب هو الى الجامعة ، وتزوجت هي .. ودارت الايام .

وسمع صوتها يقول :

ـ سمعت أن عمتي رفضت أن تخرج من الضفة الغربية .. ما هي أخبارها ؟

ابتلع ريقه ، أحس بأنه يضعف أمامها .. ووجد نفسه يقول :

ـ لقد سمعت انها لن تعبر الى الضفة الشرقية ولو قتلوها .. اليوم ذهبت الى جمعية الهلال وأخذت رسالة لابعثها اليها بواسطة الصليب الاحمر .

جاءت الخادمة بالقهوة ، وبعدها طال الصمت بينهما ... وذكر زوجها المعتكف ، فخطر له أن يسألها بدوره عن أسباب النكسة في نظر زوجها وفي نظرها ، وخيل اليه انها ستقول في أعماقها ان سبب ذلك الرجال من أمثاله الذين لم ينتموا لارضهم في يوم من الايام .. لكنه كان يود بكل نبضة في عروقه أن يقنعها بأنه قد اختار طريق النضال ، وانه بعد اليوم لن يكون لحياته معنى اذا لم يشارك في استعادة الارض .

وبدا الجو بعد ذلك ثقيلا وكثيفا ، فاستأذن في الخروج .

وعند الباب قالت له :

ـ هل أنت بحاجة لنقود ؟

فكر في أن يقول لها :

ـ انا بحاجة لان تقنعني بأنني ساكون مقاتلا ممتازا ..

لكنه أحس بأن صوته مجروح ، فعبر الممر الذي تظلله أشجار السرو وهو مطرق .

في الشارع كان يرى الاشياء مغبشة ، مثل كلمات كتبها قلم حبر ، ومرت عليها اليد قبل أن تجف .

* * *

مرة أخرى في المقهى ، في المقعد نفسه .. ووجهك تراه في المرآة نفسها .. لا منفضة هناك ولا سجائر ..

الطاولات شبه فارغة .. ثمة طاولة بجانبه يتحلق حولها ثلاثة شباب يرتدون ملابس (الخاكي) .. يتحدثون ويشربون الشاي .. وأحدهم كان مشغولا في التحديق بغلاف رواية « أولاد حارتنا » التي أمامه ..

قال الشاب النحيف ، الواسع العينين :

ـ ترى .. لماذا خسرنا المعركة ؟

حدق الشاب الاخر بصورة الغلاف جيدا ، وقال :

ـ علم ذلك عند الجبلاوي ..

دق الشاب الثالث قبضته على الطاولة ، وقال بغضب :

ـ لماذا لا تسأل : كيف ننتصر في معركة جديدة ؟.. عندي لك جواب واحد .. ان السلاح هو طريقنا الى النصر .

حدث نفسه : « أجل .. السلاح وحده هو طريقنا الى استعادة الارض » .

وجد نفسه يقف ، رأى نفسه على المرآة .. كان يبدو طويلا وحاد الملامح .. وكان يحس بالدماء حارة تسري في عروقه .

تذكر رسالة الصليب الاحمر في جيبه ، أخرجها ، وانحنى على الطاولة ، وكتب : « أمي .. منذ اليوم ساكون رجلا .. أقسم بالضفة الغربية » .

اربد ـ الاردن

يحيى يخلف

منشورات دار الاداب

تطلب في دمشق من وكيل الدار

مكتبة النوري

شارع سنجقدار